المقاصد القرآنية وأثرها في تحقيق الوسطية

د. هارون الرشيد *

This article elaborates that Allah Almighty revealed Al Qura'n to the Prophet (peace be upon him) as His final message to the mankind. This characteristic necessitates that this final message must have some objectives which can make it applicable in each era and area. Hence we find that Qura'n itself expresses some of them, like having guidance for the whole mankind, bringing them out of darkness unto light, having honor for the whole Ummah and providing them welfare and happiness. These objectives further categorized by the exegetes and Jurists that mainly Qura'n came to:

1- Reform the creeds.
2- Refine the morals.
3- Legislate for the betterment of whole mankind.

The point which is focused in this article is that how the Qura'n promotes the balanced approach in the life of its followers through these objectives?? The creeds are mentioned with such forceful evidences that they appeal the reason and the heart together and by this way Muslims are neither superstitious believing without evidences nor materialistic denying all what is beyond the senses. The morality is refined by encouraging the Ummah to hold fast the Rope of Allah and avoid the division. The Ummah is further advised to promote the tolerance and social peace among the human beings and discourage all those means which can lead them to disunity, extravagance and anarchy. The examples of balance are more evident in the legislation which is in fact based on: 1- Flexibility 2- Reasonableness 3- Easiness and facilitation 4- Concessions 5- Gradual process in removing social and economical evils.

By following these creeds, morals and directions naturally the follower becomes balanced which is in fact the title of the whole Ummah given to them by the Qura'n.

تمهيد :

أنزل الله القرآن الكريم خاتما للشرائع ووثيقة ربانية محفوظة من التغيير ، فيه الهدي والنور وصلاح الأمة وسعادتها. ولما كان القرآن خاتما للكتب التشريعية السماوية فإن الله عز وجل ضمنه المبادئ العامة والمقاصد الأساسية للتشريع الإسلامي ما يجعله صالحا لكل زمان ومكان.

* أستاذ مساعد، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية (أصول الدين) الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

ومن أبرز سمات هذه المقاصد أنها تحقق الوسطية التي جعلها الله سبحانه وتعالي ميزة لهذه الأمة ولهذا الدين ، حيث يقول تعالي في سورة البقرة : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا} (1) والتي نراها كامنة في الاعتقاد والعبادات والشعائر والأخلاق والتشريع.

وقد جاءت النصوص الكثيرة التي تأمرنا بالاستقامة علي هذا المنهج الوسط الذي لا انحراف فيه ولا شطط ، وتنهانا عن الجنوح عنه أو الميل عنه لسواه ، سواء كان بغلو أو جفاء ولا سيما في عصرنا الحاضر الذي فشت فيه ظاهرة الغلو في الدين ، والفهم السقيم لنصوصه وتعاليمه ، وتطاير شرر ذلك ، واستفحل خطره وضرره ، فكان لزاما علي رجال الأمة كلهم علماء ودعاة ، ومفكرين وأدباء ، وأئمة وخطباء ...وغيرهم أن يبحثوا حلها من خلال كلام الله المتين ومقاصده الرائعة التي أنزل الله تعالي لأجلها هذا الكلام علي حبيبه المصطفي صلي الله عليه وسلم.

فمن هذا المنطلق نبين فيما يلي تحقيق الوسطية من خلال المقاصد القرآنية:

المقاصد القرآنية:

القرآن الكريم نفسه يتحدث عن مقاصده وغاياته : فهو للهداية : { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ..} (2) وهو لإخراج الناس من الظلمات إلي النور : { الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلي النور بإذن ربهم إلي صراط العزيز الحميد } (3) وهو لسعادة الإنسان : { ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي } (4) وهو كتاب لإعزاز الأمة : { لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون } (5) { وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون } (6)

والمتتبع للقرآن الكريم يجد من ذلك مقاصد كثيرة ومتنوعة . ومن هنا نجد أن العلماء حاولوا جمعها بمنظار مختلف فمثلا يري الأصوليون والفقهاء أن مقاصد القرآن تدور حول حفظ الضرورات الخمس من الدين والنفس والعقل والنسب والمال (7)

ويري الغزالي إليها بنظرة إصلاحية دعوية حيث يقول في كتابه جواهر القرآن : " سر القرآن ولبابه الأصفي ومقصده الأقصي دعوة العباد إلي رب الآخرة والأولي .. فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع : ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتمة ، أما الثلاثة المهمة فهي تعريف المدعو إليه

وتعريف الصراط المستقيم الذي يجب ملازمته في السلوك إليه وتعريف الحال عند الوصول إليه . وأما الثلاثة المغنية المتممة فأحدها تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم.. ومقصوده التشويق وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وسره الاعتبار والترهيب . وثانيها حكاية أحوال الجاحدين..ومقصوده في جنب الباطل الإفضاح..وفي جنب الحق الإيضاح . وثالثها تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد ". (8)

وجمعها ابن عاشور بصبغة تفسيرية حيث قال إنها ثمانية أمور : الأول : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. الثاني : تهذيب الأخلاق. الثالث : التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. الرابع : سياسة الأمة وحفظ نظامها. الخامس : القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم وللتحذير من مساويهم. السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها. السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير. الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. (9)

وذكر محمد رشيد رضا عشرة مقاصد للقرآن الكريم ونحى بها نحوا يتعلق بالإصلاح التربوي ، وهي على النحو التالي :

1- بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة : الله ، البعث ، العمل الصالح.

2- بيان ما جهل البشر من أمور الرسالة والنبوة ووظائف الرسل.

3- إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام.

4- الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني.

5- تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية.

6- بيان حكم الإسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة.

7- الإرشاد إلى الإصلاح المالي.

8- إصلاح نظام الحرب ورفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير والشر.

9- إعطاء النساء جميع الحقوق : الإنسانية والدينية والمدنية.

10- تحرير الرقبة وتحرير الإنسان عموما. (10)

هذا ما ذكره العلماء من مقاصد القرآن معظمها متداخلة ويمكن خلاصة تفاصيلها في الأسطر التالية مع بيان أثرها في تحقيق الوسطية. ولكن قبل ذكر هذه الخلاصة يستحسن بيان مفهوم الوسطية حتي يكون الموضوع جليا واضحا من جميع الزوايا.

مفهوم الوسطية:

وردت الوسطية في القرآن في أكثر من آية وفي السنة في أكثر من حديث علي المعاني التالية :

1- بمعني العدل والخيرية والتوسط بين الإفراط والتفريط ، ومن ذلك قوله تعالي : {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} (11) أي عدلا . وبهذا المعني فسرها النبي صلي الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال : " والوسط العدل " (12)

2- وفسرها ابن جرير الطبري بمعني التوسط بين الإفراط والتفريط ، حيث قال : "وأري أن الله تعالي إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين ، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصاري الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسي ما قالوا فيه ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبيائهم وكذبوا علي ربهم وكفروا به ؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحب الأمور إلي الله أوسطها". (13)

3- وكذلك فسرها ابن كثير : بالخيار والأجود فقال : "الوسط ها هنا الخيار والأجود". (14)

4- وتأتي الوسطية في السنة كذلك بمعني الأوسط والأعلي كما وصف النبي صلي الله عليه وسلم الفردوس بأنه : "أوسط الجنة وأعلي الجنة". (15)

5- كما تأتي الوسطية بمعني ما بين طرفي الشئ وحافتيه . ومن ذلك قوله تعالي : {حافظوا علي الصلوات والصلاة الوسطي} (16) ، والصلاة الوسطي صلاة العصر ، وسميت الوسطي ؛ لأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين .

وتأتي الوسطية مقابل الغلو وهو مجاوزة الحد ، قال تعالي : {لا تغلوا في دينكم} (17) ، وقال صلي الله عليه وسلم : "إياكم والغلو في الدين" (18)

وتأتي مقابل التفريط وهو بمعنى التقصير .

فالوسطية بهذه المعاني هي منهج الحق ومنهج الأنبياء وأتباعهم فهم عدول وأخيار بعيدون عن الإفراط والتفريط. وهذه المعاني كلها متمثلة في الإسلام في عقائده وعباداته وأخلاقه وجميع مواقفه.

تحقيق هذه المعاني عن طريق المقاصد القرآنية :

1- مما لا مراء فيه أن من أعظم مقاصد القرآن الكريم إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح ، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق ؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل ، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينها . وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب} (19) فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم ، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة . قال الإمام الرازي : "والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم إنه تعالى أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ما وجدوا منها شيأ لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب إليهم مضار الدنيا والآخرة ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران .(20)

ومن باب تحقيق الوسطية يجلي الله سبحانه وتعالى عقيدة الوحدانية بقوله : {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} (21) وبقوله : {ليس كمثله شئ} (22) ، وأورد كذلك آيات أخرى جلت قضية الوجود والتوحيد بطريقة تملأ القلب والعقل معا إلى الإيمان بالله وتوحيده . قال تعالى : {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون} (23). وقال : {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس...} (24) وغير ذلك من عشرات الآيات التي تعالج قضية الإيمان معتمدة

علي الفطرة البشرية وعلي شحن العقل والقلب معا بعيدا عن التعقيدات الفلسفية أو الكلامية.

وبهذا أصبح الإسلام وسطا بين الخرافيين الذين يصدقون بكل شئ ويؤمنون بغير برهان وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ، كما أنه وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط وبين الذين يعددون الآلهة حتي عبدوا الأبقار وألهوا الأوثان والأحجار.

أما عقيدة البعث والجزاء التي هي ركن ثان للدين وما يحتويه من الإيمان بالحساب والجزاء يكون باعثا علي العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي ، فالقرآن الكريم قد نبذ التصورات السقيمة للبعث والجزاءمن بين منكر لها أو مقتصر في النجاة علي عرق أو شعب أو جعل ذلك رهنا بالمخلص والفادي ، فرفض هذا كله وقرر الحق الذي جاء به جميع الأنبياء وهو النجاة لا تكون إلا بالإيمان بالله والعمل الصالح مهما كان عرقه أو جنسه ، {أعنده علم الغيب فهو يري أم لم ينبأ بما في صحف موسي وإبراهيم الذي وفي ألا تزر وازرة وزر أخري وأن ليس للإنسان إلا ماسعي وأن سعيه سوف يري ثم يجزاه الجزاء الأوفي} (25)

وغياب الإيمان بالبعث واليوم الآخر أوضعفه سبب ارتكاب الفواحش والمعاصي ووقوع البغي والظلم بين الأفراد والأمم.

وأما عقيدة الرسالة فهي ركن ثالث للدين ومظهر عظيم للطف الله سبحانه بعباده وذلك أن العقل البشري لما كان لا يتمكن من عبادة الله تعالي علي الوجه الذي يرضاه ويحبه ، وكذلك لا يستطيع التنظيم والتشريع المناسب للأمة علي اختلاف طبقاتها ؛ إذ لا يحيط بذلك إلا الله وحده ، كان من حكمة الله ورحمته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب لإصلاح الخلق وإقامة القسط {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} (26) .

وقد وضح القرآن الكريم السنة الإلهية في اصطفاء الرسل واختيارهم وهي أن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم حتي يتم التفاهم بينهم ، {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} (27) . قال الآلوسي : "أي يختار من الملائكة رسلا يتوسطون بينه تعالي وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي {ومن الناس} أي ويصطفي من الناس رسلا يدعون من شاء إليه تعالي ويبلغونهم ما نزل عليهم". (28) وقال تعالي : {وما أرسلنا من

رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ..} (29) . قال الزمخشري : "أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، فلا يكون لهم حجة علي الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به". (30) .

وقال تعالي في معرض الامتنان علي المؤمنين ببعثة محمد صلي الله عليه وسلم : {لقد من الله علي المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ..} (31) . قال ابن عطية : "قوله تعالي : {من أنفسهم} معناه في الجنس واللسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه ، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم ، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته ، فبعث رسول الله صلي الله عليه وسلم في نسب قومه ، وكذلك الرسل". (32)

وقد قرر القرآن الكريم في أكثر من آية أن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم إلا أنه يوحي إليه من عند الله تعالي : {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد..} (33) . قال الرازي : "أي لا امتياز بيني وبينكم في شئ من الصفات إلا أن الله تعالي أوحي إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد". (34) .

وبهذا أصبح الإسلام وسطا بين الذين يقدسون الأنبياء حتي رفعوهم إلي مرتبة الألوهية أو البنوة للإله وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم كؤوس العذاب . {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ..} وقال : {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد..} (35) . وقال عن الطائفة الثانية : {لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوي أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون} (36) .

2- ومن مقاصد القرآن الكريم : تهذيب الأخلاق ، قال الله عزوجل : {وإنك لعلي خلق عظيم} (37) وفسرت عائشة رضي الله تعالي عنها لما سئلت عن خلقه صلي الله عليه وسلم فقالت : "كان خلقه القرآن" (38) وفي الحديث الذي رواه مالك في المؤطأ بلاغا أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : "بعثت لأتمم حسن الأخلاق" (39) .

والقرآن الكريم حافل بنماذج حية للشخصيات الأخلاقية الكريمة للترغيب في أخلاقهم ومحاكاة الحسن منها ، قال تعالي : {أولئك الذين هدي الله فبهداهم اقتده} (40) ، كما حفل بنماذج أخري ضدها للتنفير من محاكاتها ، قال ابن حزم : "ولهذا يجب أن

تؤرخ الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بما سلف" (41) . ومن ثم سيق في القرآن الكريم تجارب الأنبياء الأخيار لينتفع منها النبي محمد صلي الله عليه وسلم . قال الرازي : "فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم . ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله ، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم" (42) ، وبهذا يتضح مفاد التعبير بحرف الاستعلاء في قوله تعالي {وإنك لعلي خلق عظيم} (43) إذ دل علي استعلاء الرسول صلي الله عليه وسلم علي جميع الأخلاق الجميلة وتمكنه منها. (44)

وإذا كانت طريقة القرآن فيما يذكره الله عن أهل العلم والأنبياء والمرسلين علي وجه المدح للتأسي بهم ، فلا جرم أن ما امتدح الله به رسوله صلي الله عليه وسلم من عظيم الخلق يقتضي اتخاذه مثلا أعلي ، ثم إنه جاء ذلك صريحا في قوله تعالي : {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} (45) ، قال ابن حزم : "من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء علي محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلي الله عليه وسلم وليستعمل أخلاق سيرته ما أمكنه" (46) ثم إن العوامل الأخلاقية ومظاهرها متعددة ومتنوعة لا يمكن الإحاطة بها في هذه العجالة . فلذلك نقتصر علي أهمها وأكبرها الذي ركز عليه القرآن الكريم في أكثر من آية والذي يضمن تحقيق الوسطية في المجتمع الإنساني عن طريق القضاء علي الافتراق والتشتت والحقد والضغينة الذي هو لازم نزعة الغلو أو الإفراط والتفريط في أبناء المجتمع وذلك العامل هوعامل الوحدة والاجتماع ، فنجد أن القرآن الكريم جعل رابطة الدين بإقامة الدين كما في قوله تعالي : {شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسي وعيسي أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} (47) ، وقد أبان الله عز وجل أن مراده الاجتماع تحت شريعة الإسلام ، إذ يقول تعالي : {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا} (48) وحبل الله هو الإسلام .

وكما عني الإسلام بتأسيس هذه الجامعة وتسهيل الدخول إليها وتكثير سواد أتباعها حاطها بسياج منيع من أن يجد معول الهدم إليها سبيلا ، فجعل لها نظما تضبط

تصرفات الناس في معاملاتهم وتدابير تذود عنهم أسباب الاختلال وتقيها من الانحلال (49) وذلك ما سنشير إلى شئ من ملامحه على وجه الإيجاز فيما يلي :

ا- إرساء قواعد التسامح : عني القرآن الكريم بموضوع التسامح عناية فائقة ، فنوه به ليتمثله أهل الإسلام ولينبذوا ما ينافيه ، وعده من خصائص دين الإسلام ، فقال جل شأنه : {وما جعل عليكم في الدين من حرج} (50) وقال في صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم : {ونيسرك لليسري} (51) وقال في أصحابه وأتباعه : {وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم} (52) ولذلك اعتبر القرآن المؤمنين إخوة ، ووصفهم بهذا الوصف إشاعة لخلق التسامح فيما بينهم ، فقال تعالى : {إنما المؤمنون إخوة} (53) . ثم إن وصف الأخوة يستدعي أن تبث بين الموصوفين به خلال الاتحاد والإنصاف والمواساة والمحبة والصلة والنصح وحسن المعاملة فيتقبلها جميع الأمة بالصدر الرحب ، سواء في ذلك الشريف والمشروف والقوي والضعيف ، فإذا ارتاضت نفوس الأمة على التخلق بالأخوة بينهم سهلت على الشريعة سياستهم ، وإنما ترتاض النفوس على الأخوة بتكرير غرسها فيها ، وبتأكيد الدعوة إليها واجتثاث ما ينافيها .

ولم يقتصر القرآن الكريم على إشاعة هذا الخلق فيما بين المسلمين ، بل جعله عاما بين الناس جميعا ، فلذلك يحق لنا أن نقول إن التسامح من خصائص دين الإسلام وهو أشهر مميزاته ، وإنه من النعم التي أنعم بها على أضداده وأعدائه ، وأدل حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقررة بقوله تعالى : {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (54) وشواهد القرآن الكريم على ذلك كثيرة جدا ، منها قوله تعالى : {وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا} (55) وقوله سبحانه وتعالى : {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} (56) .

وخلق التسامح أحد الأخلاق التي حرص القرآن الكريم على ترسيخها ، فلذلك نجد تقريره في الآيات المكية والمدنية ، ومن الآيات المكية قوله تعالى : {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} (57)

قال ابن تيمية رحمه الله : "وهذه الآية فيها جماع الأخلاق الكريمة ، فإن الإنسان مع الناس إما أن يفعلوا معه غير ما يحب أو ما يكره ، فأمر أن يأخذ منهم ما يحب ما سمحوا به ولا يطالبهم بزيادة . وإذا فعلوا معه ما يكره أعرض عنهم . وأما هو فيأمرهم بالمعروف . وهذا باب واسع". (58)

ومن الآيات المدنية قوله تعالي : {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع علي خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين} (59) . فلا جرم أن التسامح وما يدور في فلكه من الاتحاد والإنصاف والمواساة والمحبة والصلة والنصح وحسن المعاملة من الأخلاق الاجتماعية التي تحتاج إلي تربية وتنشئة .

ب- ترسيخ مفاهيم السلام الاجتماعي : أرسي القرآن الكريم مفاهيم السلام في آيات كثيرة حتي أصبح السلام السمة البارزة لهذا الدين ليس في حال السلم فحسب بل وفي الحرب ومع الأعداء ؛ لأن هذا الدين يحرص علي كسب أعدائه ودعوتهم إلي الدين بدلا من مخاصمتهم ، ولأن دين الإسلام جاء لهداية الناس كافة إلي سبيل الله تعالي ، فمقصده التآلف ودفع التنازع في أرجاء العالم ، وذلك ما دلت عليه الآيات الكثيرة التي تضمنت مادة (سلم) وما في معناه من الأمن والإصلاح ، قال تعالي : {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين} (60) ، وقال عن مقصد هذا القرآن ورسوله الكريم صلي الله عليه وسلم : {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلي النور بإذنه ويهديهم إلي صراط مستقيم} (61) ، وقال تعالي في سياق آيات القتال : {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله..} (62) فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم. (63)

ج- نبذ مظاهر الفرقة والخروج علي الجماعة : وقد جاءت الآيات الكثيرة موجهة إلي لزوم الجماعة ومشددة النهي عن الاختلاف ، ومن ذلك قوله تعالي : {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلي الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} (64) وكما

سبق ذكر قوله تعالي : {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..} {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات..} (65) .

وقوله سبحانه (ولا تفرقوا) في الآية المذكورة تأكيد لما تضمنه الأمر بالاعتصام وتنفير للعودة إلي حالة التشتت والتفرق.

3- المقصد الثالث من المقاصد القرآنية الرئيسية : التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. قال تعالي : {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (66) وقال : {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله} (67) . قال ابن عاشور: "ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كليا في الغالب وجزئيا في المهم ، فقوله تعالي : {تبيانا لكل شئ} (68) وقوله : {اليوم أكملت لكم دينكم} (69) المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس". (70) . وقال الشاطبي : "فالقرآن علي اختصاره جامع ، ولا يكون جامعا إلا والمجموع فيه أمور كليات ؛ لأن الشريعة تمت بتمام نزوله". (71)

أما مظاهر الوسطية في تشريعاته فهي متمثلة في مرونتها وقابليتها للتجديد واعتدالها وتيسيرها ورخصها والتدريج فيها. وسنجمل فيما يلي هذه المظاهر:

ا- المرونة والتجديد : مما يصدقه الواقع أن الأحكام الشرعية في ديننا الحنيف متسمة بالمرونة وتشريعاته قابلة للتجديد حتي تتمشي مع مقتضيات العصر والحاجات والمسائل المستجدة وكل ذلك رحمة بالناس ولطفا بعباد الله تعالي ، ومن جانب آخر مرونة هذه التشريعات وبساطتها من أظهر القوي الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلي الإسلام.

ومن الجدير بالانتباه أن هذه المرونة أوالتجديد قاصر علي ما يقبل هذا التجديد أو المرونة أما الثوابت في الدين مثلما يتصل بكليات الدين وقيمه وأسسه العقائدية والأخلاقية فلا تهاون فيها ولا تنازل ، وقد علمنا القرآن هذا في مواقف شتي.. فحين عرض المشركون علي رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يقبل شيأ من عبادتهم ويقبلوا شيأ من عبادته كان الجواب الحاسم يحمله الوحي الصادق : {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين} (72) وهكذا نعلم من وحي الله أن لا تنازل ولا تساهل في أمور العقيدة وما يتصل بها. وفي مقابل ذلك نجد مرونة واسعة في مواقف السياسة

والتخطيط ومواجهة الخصوم بما يتطلبه الموقف المعين من حركة ووعي وتقدير لكل الجوانب والملابسات.

قال ابن القيم رحمه الله : "الأحكام نوعان : نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع علي الجرائم ونحو ذلك فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه . والنوع الثاني : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانا ومكانا وحالا كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة". (73)

ويبين الدكتور يوسف القرضاوي مجال الثابت ومجال المرن في شريعة الإسلام علي نحو أشمل فيقول: "إنه الثبات علي الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والأساليب..الثبات علي الأصول والكليات ، والمرونة في الفروع والجزئيات..الثبات علي القيم الدينية والأخلاقية ، والمرونة في الشئون الدنيوية والعملية". (74)

ب- الاعتدال في الأحكام الشرعية : إن الشرع الإسلامي وسط في أحكامه وأنظمته القانونية والاجتماعية ، وبما في ذلك المجالات الأسرية والمدنية والجنائية والدولية..فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي بالغت في التحريم وكثرت فيها المحرمات وبين النصرانية التي أسرفت في الإباحة حتي أحلت الأشياء المنصوص علي تحريمها في التوراة ، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة بل ليكمله. (75) فالإسلام قد أحل وحرم ، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر بل من حق الله وحده ، ولم يحرم إلا الخبيث الضار ، كما لم يحل إلا الطيب النافع ولهذا كان من أوصاف الرسول صلي الله عليه وسلم أنه : {يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} (76) .

فمثلا التشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة كما هو وسط في شئونه كلها ، وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد ، وبين الذين رفضوه وأنكروه ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة. فقد شرع الإسلام الزواج بشرط القدرة علي الإحصان والإنفاق والثقة بالعدل بين الزوجتين ، فإن خاف ألا يعدل لزمه الاقتصار علي واحدة {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} (77) . (78)

ج- التيسير : أصل القرآن الكريم للتيسير ، فكان التيسير من أهم المقاصد القرآنية ومن خصائص الشريعة الإسلامية ، فشاع في الأحكام التكليفية مقصد اليسر ، وتلك إرادة الله عزوجل {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} (79) وقال تعالي – وهو الرحيم بعباده – {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} (80) .

ومن اليسر إعفاء النساء من وجوب صلاة الجمعة والجماعة وإعفاء الصغير والمجنون والنائم من سريان الأحكام التكليفية عليهم ، والحدود وبعض حقوق العباد كحق القصاص وحق حد القذف فقد اشترط فيها جميعا البلوغ والعقل...واستثني الولي الفقير من عدم جواز الأكل من مال اليتيم تخفيفا عنه فقد أذن له أن يأكل ولكن بالمعروف ، (81) ونماذج أخري كثيرة.

وكان الرسول صلي الله عليه وسلم يحث أمته علي التيسير ، قال : "إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا.." (82) وقال لمعاذ بن جبل وأبي موسي الأشعري لما بعثهما إلي اليمن : "يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا.." (83) والأحاديث في هذا كثيرة.

د- الرخص الشرعية : من مظاهر وسطية الإسلام ما شرعه الشرع السمح من رخص لأصحاب الأعذار عند تطبيقهم للأحكام الشرعية ، فقد شرع الله عز وجل هذه الرخص لرفع الضيق المؤدي في الغالب إلي الحرج والمشقة لفقدان المصالح الضرورية . ورفع الحرج مقصد من مقاصد القرآن الكريم وأصل من أصوله فإن الله سبحانه وتعالي لم يكلف الناس بالتكاليف والواجبات لإعناتهم أو تحصيل المشقة عليهم {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم} (84) . وضرب القرآن مثالا للرخصة في قوله تعالي : {فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم} (85) ، ومن ذلك الإفطار في السفر أو المرض أيام رمضان ، وقصر الصلاة الرباعية في السفر والمسح علي الخفين في الوضوء والتيمم بالتراب إذا فقد الماء للوضوء أو إذا كان المسلم مريضا.

وقد قال النبي صلي الله عليه وسلم في الرخص الشرعية : "إن الله يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه" (86)

هـ- التدرج في التشريع : من ملامح الرحمة في شريعة الإسلام التدرج في التشريع ، وقد قررت في كثير من الأحكام وخاصة في المحرمات كالخمر والربا . والحكمة من هذا التدرج هو ترويض النفوس علي تقبل أحكام الله تعالي والتمهل في استئصال العادات القبيحة المتأصلة في النفوس لا سيما العادات المتوارثة عبر قرون طويلة وتخفيف علي الناس تماشيا مع فطرة الإنسان التي يتطلب التعامل معها التزام التدرج لتغييرها وحسن الارتقاء بها ، كما أن التدرج يتلاءم مع منهج التغيير بشكل عام ، إذ لا يمكن تغيير أوضاع المجتمعات لتتفق مع الشريعة إلا بأسلوب التدرج.

فمن نماذج التدرج : أولا : تحريم الخمور التي كانت متعمقة في المجتمع قبل بعثة النبي صلي الله عليه وسلم ، فحرمت علي أربع مراحل : المرحلة الأولي هي قوله تعالي : {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا} (87) ففرقت الآية بين السكر والرزق الحسن أي أن السكر ليس من الرزق الحسن. المرحلة الثانية : قوله تعالي : {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما} (88) تمهيدا للتحريم. المرحلة الثالثة : قوله تعالي : {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكاري حتي تعلموا ما تقولون} (89) ومن ثم كان علي المسلم أن يحذر أن يأتيه وقت الصلاة وهو سكران. المرحلة الرابعة هي المرحلة الحاسمة : {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} (90)

ثانيا : تحريم الربا :

كان الربا بأنواعه وأشكاله المختلفة عصب الاقتصاد في المجتمع العربي والرومي والفارسي آنذاك ، وكانت النقلة الفجائية للتحريم ربما أحدث خلخلة أدت إلي الانهيار الاجتماعي والاقتصادي ومن ثم كانت الحكمة في أن يتدرج القرآن في تحريمه علي مرحلتين :

الأولي : قوله تعالي : {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة} (91) .

الثانية : قوله تعالي : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين} (92) .

وهكذا فكل من تعمق في المقاصد القرآنية وجد مظاهر الوسطية كامنة في الاعتقاد والعبادات والشعائر والأخلاق والتشريع.

الهوامش

1- البقرة: 143 2- المائدة: 15-16

3- إبراهيم: 1 4- طه: 2

5- الأنبياء: 10 6- الزخرف: 44

7- انظر : القرافي ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس الشهير بالقرافي ، أنوار البروق في أنواع الفروق: 121/7

8- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، جواهر القرآن (بتصرف): ص 23،24 دار إحياء العلوم- بيروت 1985

9- انظر : ابن عاشور ، محمد الطاهر بن عاشور التونسي: 1/37-39 مؤسسة التاريخ العربي – بيروت 1420 هـ

10- رضا ، محمد رشيد رضا ،الوحي المحمدي: ص 43

11- البقرة: 143

12- البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب التفسير: 122/11

13- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن: 141/3 ، مؤسسة الرسالة 1420 هـ

14- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، تفسير القرآن العظيم: 455/1 ، دار طيبة للنشر والتوزيع 1420 هـ

15- البخاري ، الجامع الصحيح ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله: 354/9

16- البقرة: 238 17- النساء: 171

18- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ، سنن ابن ماجه، باب قدر حصي الرمي: 134/9

19- هود: 101

20- الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي ، مفاتيح الغيب: 467/8

21- الأنبياء: 22 22- الشوري: 11

23- البقرة: 164 24- الحج: 18

25- النجم: 35-41 26- الحديد: 25

27- الحج: 75

28- الآلوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي ، روح المعاني: 147/13

29- إبراهيم: 4

30- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله ، الكشاف: 246/3

31- آل عمران: 164

32- ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي ، المحرر الوجيز: 40/2

33- الكهف: 110 34- الرازي ، مفاتيح الغيب: 250/10

35- المائدة: 72-73 36- المائدة: 70

37- القلم: 4

38-ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، مسند أحمد بن حنبل: 286/52

39- مالك ، مالك بن أنس ، مؤطأ مالك بن أنس ، باب ما جاء في حسن الخلق: 1330/5 ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان 1425 هـ

40- الأنعام: 90

41- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، الأخلاق والسير: ص 135 ، دار المشرق العربي ، القاهرة 1408 هـ

42- الرازي ، مفاتيح الغيب: 435/15 43- القلم: 4

44- ابن عاشور ، التحرير والتنوير: 60،61/29 45- الأحزاب: 21

46- ابن حزم ، الأخلاق والسير: ص109 47- الشوري: 13

48- آل عمران: 103

49- انظر: ابن عاشور ، محمد الطاهر بن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ص 184

50- الحج: 78 51- الأعلى: 8

52- الأنفال: 63 53- الحجرات: 10

54- الأنبياء: 107 55- لقمان: 15

56- الممتحنة: 8 57- الأعراف: 199

58- ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، مجموع الفتاوي: 369،370/30 ، دار الوفاء 1426 هـ

59- المائدة: 13 60- البقرة: 208

61- المائدة: 15-16 62- الأنفال: 61

63- ابن عاشور ، التحرير والتنوير: 147/9

64- النساء: 59 65- آل عمران: 103-105

66- النساء: 105 67- المائدة: 48

68- النحل: 89 69- المائدة: 3

70- ابن عاشور ، التحرير والتنوير: 147/9

71- الشاطبي ، إبراهيم بن موسي بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ، الموافقات: 181/4 ، دار ابن عفان 1417 هـ

72- سورة الكافرون

73- الزرعي ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: 330/1 ، دار المعرفة-بيروت 1395 هـ

74- القرضاوي ، الدكتور يوسف القرضاوي ، الإسلام والعلمانية وجها لوجه: ص 151

75- مني ، إنجيل متي ، موقف المسيح من الشريعة: 17/5

76- الأعراف: 157 77- النساء: 3

78- القرضاوي ، الدكتور يوسف القرضاوي ، الخصائص العامة للإسلام: ص133

79- البقرة: 185 80- البقرة: 286

81- وزارة الأوقاف ، الموسوعة الفقهية الكويتية صادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت 218/14

82- البخاري ، الجامع الصحيح ، باب الدين يسر: 69/1

83- البخاري ، الجامع الصحيح ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف: 242/10 ، مسلم ، صحيح مسلم ، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير: 153/9

84- المئدة: 6 85- المائدة: 3

86- ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي ، صحيح ابن حبان ، باب ذكر الأخبار عما يستحب للمرء من قبول ما رخص له: 69/2

87- النحل: 67 88- البقرة: 219

89- النساء: 43 90- المائدة: 90

91- آل عمران: 130 92- البقرة: 278